ماتياس فريدريش موكه

أرض لا صاحب لها

ذكريات طفولة

دار نشر كونستانشتيفتر

"هناك جوانب متعددة للغاية
لآثار فقدان توأمين.
وعادة ما تستمر هذه الآثار
مدى الحياة."

مقدمة

أصرخ ويقل وزني

أصرخ في النهار

وأصرخ في الليل

تحضنني أمي

تمسك بي بأمان

تحضنني بحرارة

تمرر يدها على وجهي

الممتلئ بالخوف وتُقبّله

تسير ذهابًا وإيابًا

تغني وتدندن

تهدهدني يمينًا ويسارًا

لكنني أخذت أصرخ أكثر فأكثر

"إن الطفل الصغير الباكي يحتاج إلى من يشاركه اللعب"، هكذا قالت جارة حنون لوالدتي اليائسة. ووضعتْ رضيعها ذا المظهر المهندم بجواري في عربة الأطفال التوأم، وفعلًا توقفت أنا عن الصراخ، عندما أخذ وجها كلتا الوالدتين المتشوقتين يتطلعان إلى عربة الأطفال الخاصة بي، وشعرتُ بجواري بالكائن الذي انبعثت منه أصوات خافتة. تحركت بحذر نحو الأمام مثل عنكبوت يريد أن ينصب شباكه حول فريسته. فوضعت أطرافي حول الدمية الدافئة، والتصقت بالطفل الرضيع الضخم وبدأتُ أحيا حياتي.

ارتمت والدتي بجسدها – وهي منهكة القوى ولكن سعيدة – على درجات سلم الفناء، وآمنت أنني عدت إلى الحياة من جديد.

رقدتُ ساكنًا في عربة الأطفال التوأم، وعانقت رفيقي "فرانك" البدين بإحكام. أخذت أتطلع بافتتان إلى عينيه ذواتي اللون الكستنائي.

أبصر "فرانك" الضوء الساطع للواقعية الاشتراكية قبلي بثلاثة أشهر. وقد استطاع أن يركض بالفعل وعمره تسعة أشهر، وأن يكتب وهو في مرحلة رياض الأطفال، وكان يقرأ لي الحكايات الخرافية المخيفة لـــ"فيلهلم هاوف" وهو في الصف الدراسي الأول. كان قويًا وجسورًا وكان يستطيع دائمًا أن يجد حلًا لكل شئ. أصبح "فرانك" بمثابة نصفي الثاني سواءً شئت أم أبيت.

كنت أحبه وأمقته لأجل ذلك.

كانت مجموعة مساكننا محاطة بشوارع مغطاة بالأسفلت ويعلوها الغبار. رقعة غير متجانسة. وبينها المباني، التي يرجع تاريخ بنائها إلى ثلاثين عامًا، بواجهاتها المتآكلة ذات الطلاء المخربش.

كانت القنابل المقذوفة من الطائرات والقنابل اليدوية قد خلَّفت آثار ضـــربات عميقة. لمع الطوب المحروق لجدران الحماية بلونٍ أحمر ولمع الجزء مربع الشــكل، الذي ظهر من الســماء أعلى الفناء، بلونٍ أزرق. هنا مكان طفولتي، بين ســاحة الغسـيل ومكان جمع القمامة، بين شـجيرات مهملة وسـياجات من الشـجيرات ذات الأشواك، أسفل أشجار الحور والكستناء.

فاحت من الربيع رائحة أوراق أشــجار عفنة ونبات الليلك البري. كنا نتســلل إلى أدغاله ونشــيد كهوفًا، تعود لعصور ما قبل التاريخ، وبها مخزن وموقد.

وفي الصــيف، كنا نشــق لنا طريقًا عبر أدغال نباتات "البيلســان" و"القرانيا" و"الســرخس" و"القراص" المرتفعة بارتفاع الرأس. كانت الحشــرات تتســلل إلى آذاننا غير المغســولة وتخلف فيها بقعًا حمراء تســبب الحكة. كنا نشوي ديدان الأرض وكنا نسحق نباتات "الحماض البستاني" وثمرات "البيلسان".

كانت رياح الخريف تعصف بالأوراق الكبيرة لأشجار الكستناء. وكنا نتسلق إلى أعالى الأشجار ونرفع أعلام القراصــــنة ونمد بصــــرنا إلى محيطات بعيدة. وكنا ندخن أوراق الأشــــجار في غليون منحوت ونقذف ثمار الكستناء على وحوش البحر.

وفي الشتاء، كنا نضرب بأحذية التسلق الخاصة بنا في جبل "إفرست" ونجتاز الشقوق الجليدية بين أسقف الجراجات ونبنى كهوفًا ثلجية متجمدة مع أفراد من شعب الإسكيمو.

كنا نخوض معارك كأننا هنود حمر ونتقمص عند اللعب أدوار عمال مناجم الذهب وفدائيين وباحثين ونتشاجر ونصرخ ونسدد اللكمات لبعضنا البعض ونشتبك مع بعضنا البعض.

وفي المساء، كنا نعود سعداء إلى المنزل عبر باب الفناء، وبنا مزيج من المخاط وقشور الجروح والقاذورات.

بالنســبة لي كان عالم الفناء عالمًا لا تُســبر أغواره. كنت أنظر بافتتان، وكذلك أيضًــا بخوف، من نافذة غرفة الأطفال نحو الليل بالخارج. كنت أسمع صوت حفيف أوراق الأشجار وصراخ الحيوانات المتوحشة. كانت هناك ظلال خطيرة تتراقص أعلى فراشــي. وكانت أذرعها، التي تشــبه الزوائد المفصــلية، تمتد نحوي. فكنت أنزلق بصــورة أعمق أســفل الغطاء وأرهف الســمع في الظلام المعتم، ويراودني الأمل في أي إشــارة لوجود

ضـوء. لكن نافذة غرفة "فرانك"، التي كانت تميل أعلى نافذة غرفتي، كانت حالكة السـواد. كان ضـوء القمر وحده يتلألأ في الأعين الزجاجية لدميتي القماشية.

همستُ في أذن دميتي: «يا "إيجور"، لماذا يكون الخوف مظلمًا هكذا؟»

***

كان يحق لـــ"فرانك" أن ينام في فراشي حتى أصبح عمري أربع سنوات وبعد ذلك انتهى الأمر. استخدمت ذات يوم سـكين المطبخ الصـدئ وخدشـت بها سـاعدي وسـاعد "فرانك". تدَّفق الدم عندما قطعنا على أنفسـنا العهد. «شـقيقان تسـري في عروقنا دماء واحدة للأبد»، هكذا قلت بصـوتٍ عالٍ وغير مفهوم وسـقطت بين ذراعيه. بعد هذه الواقعة، ركَّب والد "فرانك" هاتفًا في غرفة الأطفال. كان السـلك معلقًا بصـورة أفقية على واجهة الفناء بين نافذة "فرانك" ونافذتي.

قالت أمي: «يمكنك الآن أن تتحدث هاتفيًا دائمًا مع شقيقك الذي تسري دماؤه في عروقك.»

***

اسـتلقيت مرتجفًا وحدي في فراشـي وضـغطت سـماعة الهاتف الصـفراء على أذني. «أهلًا يا "فرانك"، هل تسمعني؟»

في صباح يوم عيد ميلادي الخامس، كانت أمام فراشي دراجة بخارية حديثة من ماركة "MIFA".

قالت والدتي: «إنها من أجل ابني متسابق الدراجات العظيم الذي أصبح ينام بمفرده بالفعل!» وتخللت بأصابع يدها شعري الذي صار رطبًا أثناء الليل.

تسـللت حول المركبة بسـعادة. كانت من نفس طراز دراجة سـباق "فرانك" البخارية وبها مقعد قابل للطي وفرامل يدوية. لكن كانت هناك راية ترفرف باللونين الأبيض والأحمر في رفرف الدراجة الأمامي ومكتوب عليها بأحرف كبيرة باللغة الروسـية "النصـر والسـلام". حملت بفخر مركبتي الرياضـية الصـغيرة حمراء اللون نحو الخارج ودفعتها نحو خط بداية السـباق، حيثما تجمع بالفعل الكثير من أبناء الجيران. أصـبح من الممكن أن تبدأ رحلة السلام وكنت مضطرًا – مهما حدث – أن أفوز من أجل أمي.

دوَّى صوت إشارة البدء من صافرة والد "فرانك" الذي كان يعوي بأوامر عسكرية مرتديًا بذلته الرياضية بنية اللون من ماركة "ASK". ابتسم "فرانك" نحوي متهكمًا واتضح لي أنني ليست لدىَّ – كالمعتاد – ثمَّة فرصة. سيكون هو الفائز وسأكون أنا – على أقصى تقدير – في المركز الثاني.

قمت بجولة بدراجتي الحمراء السريعة كالبرق وكان "فرانك" في أعقابي مباشرًة. تركنا المتسابقين الأخرين خلفنا على بعد مسافة تصل إلى ارتفاع نباتات الليلك البري.

وفي المنحنى أعلى شجيرة "القراص" – بعيدًا جدًا بالفعل عن لجنة التحكيم التي تضم الآباء – سبقني "فرانك" بمسافة تعادل نصف طول الدراجة البخارية. ودون أن يلاحظني أحد، ضربت بقدمي سن دراجته وأنا أشعر بذعر متنامي. كنت أضع نصب عيني الجائزة الأساسية فحسب والتي كانت لا تزال متدلية من حبل الغسيل ولم يصل إليها أحد: لعبتان على هيئة جنديان من جيش ألمانيا الشرقية يشهران سلاح "كلاشينكوف". كبحت جماح الدراجة تمامًا خلف خط النهاية ورفعت ذراعاي لأعلى.

جاء فريق الآباء راكضًا ومهللًا وانهمرت دموع الفرح على وجنتي والدتي. «الآن سريعًا» هكذا دار برأسي وقفزت بقوة على المنصة حيث المركز الأول.

كانت مراسم حفل توزيع الجوائز على الفائزين، وما صحبها من مصاصات وبلي ملونة، قد بدأت بالفعل عندما ظهر "فرانك" بوجهٍ باكي متورم بفعل نباتات "القراص" وانتزع من عنقي الميدالية الذهبية المصنوعة من العلكة. انقض "فرانك" علىَّ وهو يصرخ صراخًا عاليًا جامحًا وأطبق على عنقي. أخذنا نتدحرج، مثل كرة صارخة، متجهين نحو مائدة عيد الميلاد القابلة للطي والتي انقلبت علينا محدثة صوت فرقعة.

سكون.

***

أصابني نبيذ الفراولة بحرقان في عيني. وأصبحت حلوى الشوكولاتة المعدة من البسكويت والكاكاو ملقاة بجواري في الرمال. وأصبحت قطع الجبن المرتبة على هيئة قنفذ موجودة في العشب وهي تتطلع نحوي بأعينها المصنوعة من الفجل الرومي.

لكن بعد أن أجرينا سباق جري، وضعنا فيه أقدامنا داخل أشولة، وبعد أن انهمرت علينا قطع الحلوى كالمطر، عقدنا صلحًا بيننا من جديد واقتسمنا الكنوز التي غنمناها.

احتضنني "فرانك" بين ذراعيه المتلهفين. ضممته بشدة نحوي.

«كنت أريد فقط ...» بكيت بصوتٍ منخفض.

همهم "فرانك" قائلًا: «شقيقان تسري في عروقنا دماء واحدة للأبد».

أعطيته لعبة الجندي الراكع؛ إذ كنت اســتطيع أن أفجر لعبة الجندي الواقف بصــورة أفضــل عند تحرير حي "بانكوف"[1]

لكن هذا ظل سرًا الآن.

***

[1] حي "بانكوف" كان من الأحياء الخاضعة لحكم الاتحاد السوفيتي إبان تقسيم ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. (المترجمة)

قبل باب مدخل دار حضـــانة "فيلت فريدن" بقليل ضـــغطت على الفرامل وانزلقت بالدراجة البخارية ببراعة أمام موقف الدراجات.

«هل أنت مجنون؟» قالتها باستهجان سيدة بصحبتها عربة أطفال. دفعت السيدة – وهي تهز رأسها باستنكار– رضيعها في مدخل دار حضانة الأطفال الإسبوعية[2].

***

سمحت لي أمي للمرة الأولى أن أقود بمفردي لمسافة قصيرة دراجتي الحمراء السريعة كالبرق.

قالت بفخر: «فتاي العظيم» وقبَّلت جبهتي وعلَّقت حقيبة الشـــطائر حول عنقي. كان الأمر مثلما يحدث في مراسـم حفلات توزيع الجوائز. إذ وقفتُ على كرسـي المطبخ العالي وتلقيتُ التكريم الأعظم: أن أقود الدراجة بمفردي إلى دار الحضانة البغيضة.

قاومت بيدئ وقدمئ الاستلقاء ساكنًا في صالة النوم. كنت أشعر بالفزع من الأطفال الرضع، الذين لا يحصيهم العد والذين كانوا يبكون داخل صـــناديق نومهم ذات القضـــبان وقد تلطخوا بالمخاط، الذين كانوا يُنتزعون من أمهاتهم، اللواتي تكن في عجلة من أمرهن، صـباح يوم الاثنين وسـط صـرخات احتجاج منهم ويعودون إليهن بعد عصر يوم الجمعة وهم ينتحبون بالبكاء.

كما أنني لم أكن استطيع أن أقضي حاجتي في المرحاض – وفقًا للأوامر – مع عشرة أطفال بجواري. وكنت أرفض أن أتناول الشـوربة ذات قطع الدسم الكريهة في صـالة الطعام، ولم أكن أود أن أتقدم سيرًا على الأقدام بنفس إيقاع الخطوات التي يتحرك بها الأطفال.

***

كانت نفســـي تتوق إلى أيام البقاء في المنزل مع والدتي، حيث كان ممســـموحًا لي أن ألعب بمفردي في العالم الخيالي الرائع لغرفتي. كنت أتسـلل بوعودٍ زائفة حول أمي – التي كانت مثل "سـنووايت" النائمة – وأركض إلى مخبز "شـوستر" وأقدم شـرائح الخبز الصـغير، التي كان البخار يتصـاعد منها، وأتسـلل إلى الكهف الدافئ

[2] دار حضانة الأطفال الإسبوعية كانت أحد أنواع دور الحضانات في ألمانيا الشرقية (سابقًا) والتي كانت مخصصة للأطفال الذين يعمل آباؤهم لساعات طويلة فكانت دور الحضانات تلك تستضيفهم من يوم الاثنين وحتى عصر يوم الجمعة. (المترجمة)

أسفل غطاء فراش أمي. كنت أضع أذني على نهديها الناعمين. كنت أسمع صوت دقات قلبها الخافتة وأعرف أن قلبها يدق من أجلي فقط.

لكن للأسف كانت هناك أوقات، تريد فيها أمي حتمًا أن أذهب إلى دار الحضانة. كانت تقول أنني يجب علىَّ أن أتعلم شيئًا عن العالم وأن ألعب مع أطفال آخرين وأحل الواجبات. وكانت تضيف أنها لايمكن أن تبقى دائمًا هنا من أجلي. وشعورًا مني باليأس الكبير، كنت أدس في أنفي كرات بلي، كانت تتسبب في أزمة تنفس. وكنت أرتشف مياه البرك الصغيرة وأصاب بارتفاع في درجة الحرارة وأتناول الملح بالملعقة وأتقيأ رغاوي وردية اللون. فقط، لكي لا أضطر إلى الذهاب إلى دار الحضانة اللعينة هذه.

***

جاء "فرانك" راكضًا ولوَّح لي بيده بانفعال. لقد تحرر من والده صاحب المنصب الرسمي. تشبثتُ به ووددت أن أمسك به للأبد. لكنه انضم للأسف لمجموعة "دببة ميشكا" الأقوياء وابتعد عن مجموعتي، مجموعة "أرنب هوبل"، بمسافة ستة أبواب.

هتف "فرانك": «إلى اللقاء مساءً يا أبي» وألقى عليه التحية.

ألقيت التحية معه ثم أسرعنا نرتقي السلالم المؤدية إلى المدخل. عندما انعطف الرجل صاحب المنصب الرسمي عند الناصية، أومأ لي "فرانك". قفز فوق الدرابزين نحو الشجيرات. قفزت بقوة خلفه. جلسنا القرفصاء لبعض الوقت ملتصقين ببعضنا البعض وسمعنا صوت الباب ينغلق بعنف عدة مرات تلو بعضها البعض.

همس "فرانك": «لقد انغلقت المصيدة.» ووضع إصبع سبابته على فمي.

ظللنا قابعين أسفل السلم في هدوء وسكون.

كان بإمكان أي طفل أن يضغط من الخارج على مقبض دار رعاية الأطفال المحتاجين نحو أسفل. لكن ما من سبيل أخر للفرار بمجرد أن يستقر مزلاج الباب في مكانه بالداخل.

«وماذا عن الآن؟» همست بها وأردت بالفعل أن أزحف متسللًا باتجاه السلالم.

جذبني "فرانك" نحو الخلف وابتسم متهكمًا.

«دار حضانة لحم الخنزير المحمر!» قالها بصوت كالصفير انبعث من الثغرة الموجودة بين أسنانه اللبنية.

«فلتسقط حقيبة الشطائر!»

انتزع الحقيبة من عنقي وعلَّقها على شجيرة نبات "حب الثلج الأبيض". «علينا ألا نلفت الأنظار، مفهوم؟»

قلت متلعثمًا: «أجل بالطبع. نحن لسنا أسرى في دار الحضانة.»

«مضبوط!»

أمسك "فرانك" بيدي وجذبني بمحاذاة السور ذي القضبان باتجاه الشارع. بعيدًا عن هنا فحسب.

كان فناء مجموعة مساكننا مألوفًا لنا وكان يعتبر مكانًا مثاليًا للعب في ساعات اليوم التي لا تنتهي، إلا أن "فرانك" أخذ يتأوه من الجوع بعد وقتٍ قصير بالفعل.

«يا هذا، أنا أتضور جوعًا!» مسح "فرانك" على بطنه التي تقرقر.

كنت أنا المسؤول عن جمع الطعام؛ لأننا كنا نمثل أثناء اللعب آنذاك دور ناس بدائيين وكان "فرانك" يلعب دور المحارب الذي يحمل الرمح.

سألت البائعة في مخبز "شوستر" بصوتٍ صغير عالٍ لافت للأنظار: «هل لديكم بقايا كيك؟»

أخذت أتطلع أثناء ذلك إلى عيني البائعة البدينة صاحبة أجمل نظرة رأيتها والتي كانت تبدو كنظرة السنجاب.

أطلقت البائعة اللعنات بأعلى صوت من فوق النضد، قائلَّة: «لا مجال هنا للتسول! من أين أتيت أنت؟»

جذبت رأسي داخل جسدي وهرعت إلى الباب وعندئذ صفرت هي لي لكي أرجع. «ابقى هنا!» ناولتني كيسًا به كيك.

«عليك أن تحترس!»

سحبتُ أنا أيضًا زجاجة لبن من صندوق البضائع المخزنة في الجمعية الاستهلاكية وانطلقتُ راكضًا.

كان "فرانك" ينتظرني بالفعل في كشك صغير تابع للموقف.

«يا هذا، أين أنت!»

دسَّ "فرانك" في فمه بنهم قطعة حلوى من السكر ملفوفة على هيئة حلزونة. وبعد أن تناول ثاني فطيرة محلاة سالت مربي الكرز على ذقنه.

قال "فرانك" بغضبٍ وبصوت غير واضح: «أنا أنزف دمًا!» وجعل قدرًا أكبر من المربى يتدفق من فمه.

هتفت: «النجدة!» وزاغت عيناي وسالت قطرات من اللبن على ممر المشاة. احتضنا بعضنا البعض وضحكنا.

كانت العصافير ترفرف بقلق من حولنا وتلتقط بمنقارها فتات الطعام.

عندما سارت الحافلة نحو الأمام، جذبني "فرانك" إلى أعلى.

«هيا، سنقوم برحلة بها مغامرات!»

***

جلسنا في الجزء الخلفي من حافلة "إيكاروس"[3] –التي انبعث منها صوت عالٍ – وأخذنا نقلد صوت ضجيج المحرك. لقد تداعت المدينة وفجأة رأيت عبر النوافذ المكتسية بالضباب حقولًا بها بقايا زرع ما بعد مرحلة الحصاد. لعقت إحدى فتحات الرؤية الموجودة في النافذة وضغطت وجهي على اللوح الزجاجي. كانت هناك صفوف لا نهاية لها من الأشجار تتراقص عند مرورنا بها. ثم توقفت الحافلة بغتَّة.

صاح سائق الحافلة البدين بصوتٍ كالنباح: «إذَا، اخرجا الآن أيها الوغدان! إنها المحطة الأخيرة!» وقفت أنا و"فرانك" في جانب إحدى الغابات في حيرة وراودنا شعور كأننا مثل "هانزل" و"جريتل"[4]. مددت يدي إلى يد "فرانك" واقترحت أن نتسلق أحد المرتفعات.

«يمكننا بالتأكيد أن نرى منزلنا من هنا بالأعلى.»

أشار لي "فرانك" بعلامة أنني مجنون.

«هل جننت؟ يجب علينا بالضبط أن نمضي في الاتجاه الأخر.»

[3] "إيكاروس" كان اسم الحافلات المنتشرة في دول الكتلة الشرقية والدول التي حكمها الاتحاد السوفيتي (سابقًا). (المترجمة)
[4] "هانزل" و"جريتل" بطلا حكاية خرافية ألمانية شهيرة دونها الأخوان "جريم". (المترجمة)

ضــللنا الطريق عبر الأدغال واهتدينا صــدفًة إلى بقعة جرداء وبها علامة إرشــادية تشــير إلى الطريق. أخذ "فرانك" ينظر عبر نظارة الأطفال الخاصة به ذات العين الواحدة.

سألته بترقب: «ماذا ترى الأفعى الحولاء؟»

قال وهو يتهجى الحروف: «برلين، خمسة عشر كيلو مترًا.»

هويت على الطحالب. لقد تحوَّل إقدامي على خوض المغامرات إلى غصة في حلقي.

قال "فرانك" بصوتٍ أجش: «هيا تعالَ يا ثعبان الماء المرتجف، المسافة ليست بعيدة.»

نظرت إلى قمم الشجرة السامقة نحو السماء ورأيت أن اليوم قد دنا من نهايته.

أخذ رجل الرمال الصغير[5] يلوح لي بيده من خلف نظارة "فرانك" ذات العدسة الواحدة لكي يشجعني. صرنا نهيم على وجهنا في الغابة التي غشيها الليل. انبعث صوت طقطقة من الأشجار المنخفضة وصوت حفيف الرياح في أوراق الأشجار.

هتف "فرانك": «أستطيع أن أرى ضوءًا من مسافة بعيدة!» وانطلق راكضًا.

***

صــارت المنازل الغريبة للبلدة مطموســة المعالم أمام عيني. حاولتُ أن أنظم خطواتي. اهتمت ســيدة عجوز بأمرنا وأمسكت بأيدينا بقوة. كنت على يقين أنها ساحرة قطع الأرض الكبيرة[6] وأنها ستزج بنا على الفور في فرن الخبز الخاص بها. دخلنا – ونحن نبكي بصوتٍ عالٍ – إلى منزل صغير بالٍ له سقف يشبه كعكعة الفلفل.

قال رجل، كان يرتدي زيًا رســميًا: «أي أنكما قادمين من دار حضــانة "فيلت فريدن"» ومدَّ يده نحو ســماعة الهاتف.

أُقسمنا ونحن نذرف الدموع قائلين: «نحن نقول الصدق!»

***

[5] رجل الرمال: شخصية وردت في الموروث القصصي الأوروبي الأسطوري بوصفه رجلًا يزور الأطفال مساءً ويُلقي الرمال في أعينهم، لكي يناموا. وتم بين عامي 1959 و1989 إذاعة برنامج يحمل عنوان "رجل رمالنا الصغير" وكان بطله تلك الشخصية الأسطورية. (المترجمة)

[6] ساحرة قطع الأرض الكبيرة: شخصية أسطورية وردت في المعتقدات الشعبية الأوروبية. (المترجمة)

تسللت مرورًا بالمطبخ، وأنا أتدثر بغطائي الليلي الدافئ، على السيراميك البارد ودخلت إلى غرفة المعيشة واختبأت على كرسي الشيزلونج بين الوسائد المطرزة تطريزًا يدويًا.

كانت جدتي تجلس وبصحبتها قدحًا من القهوة التركية، كان البخار يتصاعد منه، وجريدتها الموضوعة على طاولة الغرفة. فاحت رائحة القهوة وحبر طباعة وبرقوق مجفف وفطائر التفاح.

أغمضت عيني وشعرت بالسعادة أنني غزوت عالم جدتي. كانت جدتي تسكن على أطراف حي "بانكوف" في منزل صغير ملعون وبه حديقة. كانت هناك كلاب مخيفة وخنازير نهمة تقبع متربصة في الطرق الزراعية.

كان المرعى الأخضر في القرية مفروشًا بحصى رصف الطريق. وكانت الكنيسة القديمة تقع ببرج جرسها المخيف في منتصفه. وقد اصطفت المنازل من حولها كأنها تصطف في عقد من اللؤلؤ. ورشة الحدادة والمتجر الريفي والمشتل ودكان البقالة والمغسلة ومحل حلويات "شتول" الذي كنت أعرج عليه مع جدتي بعد زيارات المقابر في أيام الأحد.

***

تلألأ على طاولة المطبخ مشهد بديع للمخبوزات. كان علىَّ أن أنتقى شيئًا منها لكنني لم أستطع أن أحسم أمري. كان هناك حلوى الإكلير المحشوة بالبودنج اللزج وحلوى هرمية الشكل بها حشو أحمر من مربي التوت وشوكولاتة مخروطية باردة ومخبوزات أمريكية مغطاة بالسكر وحلوى "أمواج نهر الدانوب" المحشوة بالكريمة ومعجنات مخروطية دسمة وحلوى "البالميي" المقرمشة.

***

كانت جدتي تجلس إلى الطاولة المنمقة بجوار قدح صغير من القهوة وحلوى "البروفيترول" وبها قشدة إضافية. وقد وضعوا وجبة الطعام في مكانها المعتاد دون أن تطلب جدتي هذا.

قالت جدتي: «إن التغييرات هي فوضى مبرمجة.» واغترفت كمية كبيرة من القشدة ووضعتها في قدح قهوتها.

نظرتُ بافتتان إلى كتلة القشدة التي أخذت تذوب ببطء في داخل بحر القهوة الأسود.

كان لدى جدتي ثلاثة فساتين منزلية. كان أحدها اسمه "المنزل" والثاني "الحديقة" والثالث "البديل". كانت تستخدم الفستان الثالث عندما يكون فستان "المنزل" وفستان "الحديقة" يرفرفان على حبل الغسيل في الهواء.

كان اليوم يبدأ في صومعتها الصغيرة بصوت أزيز مطحنة القهوة وخشخشة النار المشتعلة من الخشب في الموقد القديم وبإطلاق اللعنات بصوتٍ منخفض، عندما كانت تصاب بحروق بسبب مقبض غلاية الماء الساخن جدًا أكثر مما ينبغي.

كان منزل جدتي هو متحف كنوز طفولتي. لم يكن مسموحًا لي بالطبع أن أفتح خزانات معينة – والتي كان بها أبواب سرية صغيرة كامنة خلف الأرفف المتكدسة عن آخرها– سوى في ظل رقابة مشددة جدًا. لكنني سرعان ما اكتشفت مخابئ المفاتيح. وكنت أعرف بدقة متى يمكنني أن أفتح الأبواب دون أن يلاحظ أحد ذلك؛ إذ أن حياة جدتي كانت تتبع إيقاعًا ثابتًا؛ طقس قراءة الجريدة الصباحي واستعدادات فترة الظهيرة والنوم العميق لفترة قصيرة بعد تناول الطعام وأعمال الحديقة وبرنامج "أبندشاو". وهكذا كنت أستطيع أن أفتح الأدراج السرية في خزانة غرفة النوم وأجرب أطقم أسنان جدي المتوفي أمام المرآة المصقولة. كنت أتزين بعقود اللؤلؤ وتنورات بيضاء وصلبان وقبعات من الريش وياقات من فراء حيوان النمس.

فاحت من خزانة بوفيه الغرفة رائحة تجمع بين المرارة والحلاوة. كان مخزنًا هنا كاكاو وحبوب قهوة الموكا ومخبوزات ومكعبات فواكه، وقد أخفت جدتي علب حبوب أدويتها الصغيرة خلف كومة من مفارش السفرة المطرزة تطريزًا يدويًا. وكان مفروضًا عليها حظر مطلق.

***

«اليوم لدينا شوربة بنجر!»

وضعت جدتي السلطانية، التي كان البخار يتصاعد منها، وبها طعامي المفضل على مشمع المائدة. تصاعدت الرائحة الطيبة المألوفة إلى أنفي.

شعرت بالسعادة وقلت: «بالعرق البرليني؟»

«بالضبط يا صغيري!»

إلا أن تناولي سرًا لحبوب دواء "ليو" من خزانة البوفيه المغلقة بإحكام أرغمني فجأة أن أذهب إلى المرحاض. لساعات.

أطلقت جدتي اللعنات: «لن أرحمك!»

«لو تناولت سرًا حبوب دوائي اللعينة مرة أخرى.»

أخذت جدتي تدفئ بطني المتشنجة بيديها الخشنتين. وصارت حتى المساء تسقيني شايًا ساخنًا وتطعمني خبزًا أبيضًا محمصًا.

استمر استجمامي للاستشفاء على كرسي الشيزلونج حتى برنامج "تاجسشاو" وتوسلتُ بصوتٍ واهي في طلب البرنامج التالي.

كانت آلام البطن قد اختفت منذ وقتٍ طويل – كأنها تبخرت – عندما ظهر الفنان الترفيهي العظيم في تليفزيون غرب ألمانيا "رودي كاريل" على سطح الشاشة الملونة باللونين الأبيض والأسود. وقدَّم متسابقي العرض التليفزيوني "أم لاوفندن باند". أخرجت بأصابعي لفة زجاجات القطرات من أسفل وسادة الأريكة ودسست اثنتين منها في باطن خدي. أخذت جدتي تعد الأغراض الموجودة في العرض التليفزيوني "أم لاوفندن باند" وصاحت بصوتٍ كالرعد وهي تهوي بقبضة يدها على التليفزيون. أصبحت الصورة مُعطَّلة من جديد. قال المتسابق: «محمصة خبز كهربائية ... خلاط ...» صاحت جدتي بصوتٍ كالزئير: «مكنسة كهربائية، مكنسة كهربائية، أنت نسيتها!».

رفعتُ ذراعاي عاليًا وشاركتُ جدتي الصياح بصوتٍ كالزئير. لكن في هذه اللحظة انحشرت إحدى زجاجات القطرات في عنقي. انبعث مني صوت صفير كأنني أنبوب مكنسة كهربائية مسدود وظهرت علىَّ أعراض درجة قاسية من مرض "داء هنتنغتون".

***

لابد وأن وجهي قد تلَّون بلون ثمار طماطم الحديقة اليانعة؛ لأن وجه جدتي قد امتقع.

حاولت أن أهتف قائلًا: «لكن يا جدتي، ما سبب أن عيناك كبيرة هكذا؟» لكن لم يخرج مني سوى صوت حشرجة ممتلئ بالخوف. أطبقت جدتي على كتفيَّ بيديها الكبيرتين على نحوٍ مخيف وهزتني كأنني إحدى

أشـــجار التفاح لديها. لم يحالفني الحظ أنا وجدتي فعلًا. فقد انحشـــرت زجاجة القطرة بقوة. أخذت محيطات العالم تهدر في أذني، غير أن جدتي لم تكن تشعر بالخوف من الذئب الشرير ووجدت حل السؤال بالفعل.

لفَّت جدتي ذراعاها مفتولا العضلات – اللذان بديا كأنهما زوائد مفصلية – حول بطني.

أخذت جدتي تلهث: «واحد ... اثنان ... ثلاثة ...!»

كانت في تلك الأثناء تضـغط عليَّ كالمضـخة حتى اندفعت زجاجة القطرة من حنجرتي وتحركت عبر الغرفة على هيئة قوس كامل محدثَّة صوت صفير واصطدمت بعنف بالصمام الإلكتروني لجهاز التليفزيون.

لهثت جدتي قائلًة: «لقد امتصصت القطرة!» خرج من مجرى تنفسي صوت تجشؤ كأنه هتاف سعادة. انطلقت شارة نهاية العرض التليفزيوني وتمنى لنا "رودي كاريل" مساءًا طيبًا.

بعد عام، كنت أجلس من جديد أمام جهاز تليفزيون جدتي القديم وماركته "شـــتاســـفورت" وأنظر إلى مذيع الأخبار في برنامج "أكتوإله كاميرا". وقد ادعى طبيب أمريكي اسمه "هنري جي. هايملش" أنه وجد «الحل» لانسداد مجرى التنفس.

على الرغم من أن جدتي كانت قد أخرجت – بهذا التدخل بيدها والذي أصـــبح مشـــهورًا في العالم الآن – زجاجة القطرة من ممر الهواء عندي عن طريق الضـــغط كالمضـــخة. وها هو هذا الرجل يتفاخر الآن بهذا الأمر!

***

كان برنامج "فليمرشـــتونده"[7] التليفزيوني المذاع يوم الســـبت يبدأ كل مرة بالطريقة ذاتها: فكان "فالتر إيه. فوس" يقدم نفسه باعتباره الأستاذ الجامعي "فليمريش" ويحكي عن أحدث الأعمال المصورة في استديو أفلام مدينة "بابلســـبيرج". اليوم كان "فليمريش" يحكي عن محميات الهنود الحمر في أمريكا الشـــمالية. تحدث "فليمريش" عن جيش الولايات المتحدة الأمريكية تحت قيادة اللواء "كاستر" وهو الجيش الذي شنَّ فيما مضى واحدة من أكثر المذابح دمويَّة بحق سكان البلاد الأصليين.

عرض "فليمريش" صورًا لنهر "لتل بيج هورن"[8]، الذي أصبح لونه أحمر بفعل الدماء، وتحدث بحماسٍ كبير عن الأدلة البارزة، التي قدمها الكاتب "جيمس فينيمور كوبر". شـهادة تاريخية على التشـريد الدموي للسـكان الأصليين من الهنود الحمر، مرآة عاكسة للرأسمالية الوحشية.

جلســـت أنا و"فرانك" – ونحن نرتدي الزي الكامل للهنود الحمر – على خيولنا التي صـــنعناها من مقاعد الأريكة الأســطوانية ونحن على أهبة الاســتعداد لأن نواجه الأشــخاص القبيحين ذوي الوجوه الشــاحبة بينما نمتطي صهوة الخيول.

وفيما يتعلق بمسـتلزمات العرض المسـرحي للعبتنا، فقد كنا نسـتحق التتويج بجائزة الأوسـكار. فمنذ بضـعة أسابيع، تزينت غرفتي بأريكة يرجع تاريخها لحقبة الثلاثينات. وتحوَّل مسندا ظهر الأريكة الملفوفان كالسجق – ومعهما كراسـي المطبخ العالية وألجمة صـنعناها من مجموعة وفيرة من أحزمة والدتي - إلى "شـنيلر فيند" و"جرولينـدر دونر" وهما فرسانا الجسوران.

بدأ العرض بموسيقى آلة البان فلوت من نمط الموسيقى التقليلية.

لم يكن الأمر متعلقًا بتصـــوير تافه لشـــخصـــية البطل الشـــهير "فينيتو" في فيلم. لا؛ فالممثلان "بيير برايس" و"ليكس باركر" لم يظهرا في أعيننا سوى كتقليد سئ لبطلنا الخارق: "غوجيكو ميتيتش".

لقد قدمت مجموعة عمل "الدائرة الحمراء" التابعة للشـركة الألمانية المسـاهمة لصـناعة الأفلام تحفة فنية من حلقات برنامج "فليمر شتونده"، أخرجها المخرج "جوتفريد كولديتس".

---

[7] برنامج "فليمرشتونده" برنامج أطفال شهير كان يذاع في القناة الأولى من تليفزيون ألمانيا الشرقية. (المترجمة)

[8] نهر "ليتل بيج هورن": نهر في أمريكا الشمالية دارت عنده في القرن التاسع عشر معركة دامية بين جيش الولايات المتحدة الأمريكية والهنود الحمر. (المترجمة)

كان "غوجيكو ميتيتش" بطلنا المثالي؛ فلم يكن يجسد شخصية أحد الهنود الحمر فحسب، وإنما كان يرتدي حلقة تلو أخرى من برنامج "فليمر شتونده" الزي الرسمي لمختلف زعماء قبائل الهنود الحمر.

جعل هذا الأمر عملية تبادل الأدوار بيني وبين "فرانك" – على المدى الطويل – أكثر سهولة بعض الشئ. لكن ليس في عصر هذا اليوم من حلقة برنامج "فليمر شتونده".

ركض حصاني، الذي صنعته من مقعد الأريكة الأسطواني، بقلق نحو "فرانك".

رفع "أولزانا" زعيم قبائل "أباشي" يده لتحقيق العدالة وعندئذ صاح "فرانك" بصوتٍ كالزئير: «أنا "أولزانا"!» وجذب لجام مقعد الأريكة الأسطواني. فشبَّ حصان "شنيلر فيند" متمردًا بصورة خطيرة. صرختُ قائلًا: «أنت شخص سخيف تجمع فروات الرؤوس المسلوخةَ[9]! أنا "أولزانا".»

كان من الضروري للأسف أداء دور البطل في كواليس غرفة معيشتنا مرتين.

رفع "فرانك" قبضة يده وأعطى إشارة الهجوم.

امتطينا فرسينا وركضنا بسرعةٍ بالغة. أخذت كراسي المطبخ العالية تكشط أرضية الردهة. مرت في التليفزيون سريعًا مناظر طبيعية لمنطقة "سانتا ريتا" وهي منطقة موحشة تقع بالقرب من الحدود المكسيكية. أخذت أرتطم بـ"فرانك" عند قاعدة المنضدة ذات الاستخدامات المتعددة. ارتمى "فرانك" علىَّ بمعداته، التي كانت مثل صاروخ "توماهوك"، وجذب فروة رأسي.

صرخ قائلًا: «أنت أيها الأبيض الملعون!»

تعثرت قدما الفرس "جروليندر دونر". انزلق الحلى المصنوع من الريش على وجهي.

قلت بصوت يشبه الفحيح، متجهًا نحو "فرانك": «الآن يأتي ثأر الرجل الأحمر!»، وضربت ضربتي بعلبتي المعدنية الفضية.

صرخة قصيرة غاضبة، ثم شدَّ "فرانك" السرج على الجواد وقفز قفزة خطيرة من حصانه – الذي صنعه من مقعد الأريكة الأسطواني – إلى حصاني الذي صنعته من مقعد الأريكة الأسطواني. لقد اندهش "غوجيكو

[9] كان من الشائع في الشعوب القديمة ومنها الهنود الحمر سلخ فراء رؤوس الخصوم المهزومين. (المترجمة)

ميتيتش" نفسه من العرض الذي قدمناه بصوره متوازية مع عرضه. وعندما سقطنا على جهاز التليفزيون، رفع "أولزانا" يده في استحسان ليلقى علينا التحية.

بعد ذلك سارت كل الأمور بسرعة تامة.

اصطدم كابل الإيريال برأسي وخلَّف فيه جرحًا بشعًا. استلقى "فرانك" بجوار فرس "جروليندر دونر" وأخذ يتأوه. انقلب جهاز التليفزيون من فوق طاولة الخياطة وانبعث منه أصوات صفير وضجيج غريبة. كانت أمي تقف عند إطار الباب وبصحبتها الطعام الهندي ذوالمذاق القوي – أي سلطة السجق المدهشة التي كانت تعدها – عندما فارق الصمام جهاز التليفزيون محدثًا صوت اصطدام عنيف ومثير للفزع.

***

أعقب ذلك الأمر حبسي في الغرفة لمدة أسبوعين. لم تستطع أمي أن تفرض عليَّ منع مشاهدة التليفزيون؛ إذ أن جهاز التليفزيون من ماركة "شتاسفورت" كان قد ذهب إلى مثواه الأخير.

لم نرَ قط نهاية الفيلم، إلا أن "فرانك" تلاها عليَّ في وقتٍ لاحق.